دِراسَةُ صِلَةِ التَّناصِّ بَيْنَ القُرآنِ وَ الشِّعْرِ الجاهِليِّ

أ.د. حسين سيّدي
جامعة فردوسي - ايران

غلام رضا طاهري
معهد المعلمين - مشهد - ايران

فحوى البحث

يقول السيدان الباحثان إن السبب من طرح هذا الموضوع هو ظهور القرآن في نسيج تاريخي ثقافي يثير أسئلة عما إذا كانت لغته منفصلة عن البنية الثقافية التي نزل فيها أم متصلة بها، وهل يقتضي فهم النص القرآني بهذا القاسم التاريخي الثقافي؟. وخلص السيدان الباحثان الى أن علماء اللغة بادروا منذ القدم الى مقاربة مفردات القرآن بالنصوص العربية الأخرى بما فيها الشعر الجاهلي، لإثبات إعجازه وجماله وتناسقه حيث أعطى تلك المفردات معاني اصطلاحية لم تكن معهودة في الاستعمال اللغوي قبل نزوله. وقد ضربا لذلك أمثلة كثيرة من مفردات اختاراها.

الخلاصة

يرتكز التناص على الفكرة التى تقوم على بناء الآثار الادبية على اساس الانظمة و الرموز و التقاليد الناجمة عن الآثار الادبية السابقة. لسائر الانظمة و الرموز و التقاليد الفنية و الحاوية بشكل عام اهمية اساسية في تكوين معنى الأثر الادبي.

يرى المنظرون المعاصرون ان النصوص الادبية و غير الادبية مجردة عن اى معنى مستقل ففى الواقع تتشكل النصوص مما يسميه المنظرون فى يومنا هذا التناص (آلن، ١٣٨٠، ص١١).

السبب من وراء طرح هذا الموضوع هو ظهور القرآن فى نسيج تاريخى ثقافى فيؤدى تكونه فى نسيج ثقافى الى بعض الالزامات منها: هل هو منفصل عن البنية الثقافية التى تكون فيها أم متصل بها؟. هل يقتضى فهم معنى النص الاهتمام بهذا القاسم التاريخى الثقافى و الصلات التناصية؟. و هل اخذها القرآن بعين الاعتبار لكونه نصاً مقدساً و موحىٰ به؟.

بادر علماء القرآن منذ القدم بمقارنة القرآن بالنصوص الاخرى بما فيها الشعر لإثبات اعجاز القرآن و درسوا نص القرآن و بينوا جماله و صلابته و تناسقه عن طريق دراسة الاشعار و النصوص الأدبية و الكشف عن قواعد تكونها، و قد طور دلالاتها. عبدالقاهر الجرجانى وهو اول من أمعن النظر فى هذا المجال من بين الادباء و علماء القرآن المسلمين فهو يعتقد أن من لم يعرف مكانة الشعر و منزلته ولم يكثرث بهما فقد اغلق باب فهم و دراسة القرآن أمام نفسه. فمن وجهة نظر الجرجاني لا يختلف القرآن عن النصوص الاخرى و الفرق الوحيد يكمن في طريقة استعمال قواعد تكوين النص و اسلوب انتظامه و ترتبه التي تميزه عن النصوص الأخرى. و لذلك فان الشعر و العلوم اللغوية ليست من اجل فهم القرآن فحسب بل باتت ضرورية من اجل اثبات اعجاز القرآن و تبيين خصائصه و صلابة نصه.

الكلمات الاساسية: القرآن، التناص، الشعر الجاهلي.

التمهيد:

وصف علم الدلالة بعلم دراسة المعنى (لاينز، ١٣٨٣، ص٢٠). مبدئياً فان القرآن الكريم عبارة عن نص يجب ان نستعمل آليات فهم النصّ فيه من اجل فهمه. فهذا النص و ان كان نصاً سماوياً لكنه تلبس بلباس اللغة العربية و ارسلت رسالته فى قالب المفردات العربية جانب المرسِل (الله) الى المتلقى (النبيﷺ) فالوسيط بين مرسل الرسالة و المتلقى هاهنا هى الكلمات التى كان الرسول يعرفها و لم تكن غريبة بالنسبة الى اهل اللغة فى حقلهم الثقافي لذلك تاتى معرفة معانى كلمات و مفردات النص فى المرتبة الاولى من مراتب معرفة معانى النص ولابد من دراسة و تدقيق المصادر الثقافية و اللغوية و آدب العرب المعاصرة للنزول و معرفة اصول المفردات فى العصر الجاهلى من اجل فهم معانيها فى عصر نزول القرآن.

ما هو التطور الدلالي؟.

موضوع التطور هو احد المباحث الفلسفية المطروحة قبل عهد سقراط و يضرب جذوره فى التعليمية الفلسفية التى تقول ان كل شى فى حال تطور. اذ كانوا يقولون: «ان الحقيقه بمثابة نهر يستطيع احد ان يجتازه مرتين». (لس، ١٩٩٧، ص٢٢٧). فاللغة ظاهرة طبيعية واحدى سلوكيات البشر التى هى فى حال تطور كسائر العناصر الطبيعية. فهذا التطور، وان كان امراً طبيعياً و لابد منه فى الامور و الظواهر، إلّا إن البعض يعتبره مفسداً للغة و آخرين يعتبرونه مفيداً من اجل تكاملها.

قبل ألفى عام انتقد الروميون (الرومان) التطورات التى شابت اللغة اللاتينية انتقاداً شديداً لكن لم يثمر استياؤهم عن فساد اللغة اللاتينية المتزايد شيئاً...

و تحولت لغة الحوار تلك الفاسدة على حد قولهم الى لغات حديثة كالفرنسية و الايطالية و الاسبانية اذ لايعتبرها المتكلمون بها فاسدة البتة بل يعتبرونها غنية و جميلة و بليغة (تراسك، ١٩٩٦، ص١٠).

لكن لم يكن الحال هكذا دائماً بل كما

يقول النحاة المقررون: «تتطور اللغة بسبب كسل اهلها و رغبتهم اللاإردية بتبسيطها و تبسيط التكلم بها» (برايت، ١٩٩٧، ص٨٤).

لكن اخذ النحاة الجدد فى المقابل التطورات الدلالية بعين الاعتبار و صرحوا مبدئياً بأن تطورات اللغة منتظمة و منهجية و من الممكن تبيينها بشكل دقيق. وقد أجريت معظم الدراسات في هذا المجال في المدرسة التي تسمى علم اللغة الاجتماعي و التي أسست من قبل تلاميذ (انطون ميه) باريس. (آرلاتو، ١٣٧٣، ص٢٢٤).

التطورات الدلالية:

سعى العلماء المسلمون للتطرق الى التطور الدلالى للكلمات القرآنية منذ القرون الأولى نظراً الى الوصلة الموجودة بين القرآن ولغة عرب الجاهلية. الآثار الأولى و ان لم تكن منهجية لكنها تعتبر الأسس الأولى لمباحث علم اللغة فى مجال الكلمات و المفردات القرآنية و من الممكن تقسيمها على عدة اقسام:

١. الآثار التى كانت تتطرق الى المفردات القرآنية الغريبة وتسعى الى شرحها استناداً الى المخزون اللغوى لعرب الجاهلية و استعانة بالشعر الجاهلى. منها «تأويل مشكل القرآن» و «تأويل غريب القرآن» لابن قتيبة.

٢. الآثار التى كانت تتطرق الى لهجات العرب و مفرداتها المستعملة فى القرآن الكريم كالأتقان اللسيوطى.

٣. الآثار التي كانت تتطرق الى المفردات المتشابهة و المتناظرة و التى تعرف به «الاشباه و النظائر» منها «الأشباه و النظائر فى القرآن الكريم» لمقاتل بن سليمان البلخى.

كان لمفسرى القرآن الكريم اهتمام خاص بالتطور اللفظي في القرآن أيضاً. فقد كان التفسير اللفظي من المراحل و الجهود الأولى لتفسير القرآن الكريم. فعلى سبيل المثال كان ابن عباس يعتبر الكلمة أهم أوجه التفسير و يقول: التفسير اربعة أوجه:

١. الوجه الذى يعلمه العرب من خلال لغته.

٢. التفسير الذى ليس لأحد عذر فى

عدم فهمه.

٣. التفسير الذى يعلمه العلماء.

٤. التفسير الذى لا يعلمه الا الله (الزركشي، ١٩٧٢، ج٢، ص١٦٤).

كانت الصحابة ترجع الى لغتهم التي نزل بها القرآن و تبحث عن معانى المفردات القرآنية فى الشعر و النثر و الامثال و الخطب و الحكم. النموذج الشعري لهذا الاسلوب هو الأسئلة و الاجابات التي دارت بين نافع بن الأزرق و نجدة بن عويمر من جهة و ابن عباس من جهة اخرى حيث كان ابن عباس يستعين بالشعر الجاهلي للرد عليهما. يقول ابن عباس: «الشعر ديوان العرب و اذا خفى عنا حرف من القرآن الذى انزله الله بلسان العرب نرجع الى ديوانه» أو يقول: «ان تسألونى عن غريب الكلمات القرآنية فابحثوا عنها فى الشعر لأنه ديوان العرب» (السيوطى، ١٩٩٦، ج١، ص٣٨٢).

القرآن و المفردات العربية:

قلّما نجد كلمة قرآنية لم تستعمل فى العصر الجاهلي قبل نزول القرآن فهذه الكلمات و اسعة النطاق اذ يحتوي القرآن على مفردات معظم القبائل الجاهلية و من ثم تكلم القرآن صراحة عن هذا الأمر. ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [سورة ابراهيم: ٤].

اتخذ القرآن الكريم عدة مناح فى تعامله مع الكلمات العربية منها:

١. حفظ شكل الكلمة الأم مع اضفاء المعنى الشرعى على معناها اللفظى مثل كلمتى «مؤمن» و «اسلام». يقول ابن فارس: يعرف العرب كلمة «مؤمن» من «أمان و ايمان» بعضى التصديق ثم اضافت عليها الشريعة أوصافا اذسمى «المؤمن» مؤمناً على الإطلاق و هكذا هو الحال عن كلمة اسلام التى اعطتها الشريعة أوصافا. (ابن فارس، ١٩١، ص ٤٥).

٢. حفظ المعنى الشرعى للكلمة قبل نزول القرآن مع اضفاء القيد الشرعى عليها، على سبيل المثال، لم تنقطع صلة كلمتى «صيام» و «حج» عما كانتا عليه فى الجاهلية. يقول ابن فارس: الصيام فى الأصل يعني الامساك لكن

الشريعة اضافت اليه معاني كالنية و الامساك عن الطعام و عدم الجماع كما أضافت الى الحج الذى هو بمعنى النية اوصافا. (المصدر نفسه).

٣. حفظ شكل الكلمة لكنها تنقل من حقل الحقيقة الى حقل المجاز مثل منافق و كافرو فاسق. كان العرب يعرف معنى السترمن كلمة الكفر فحسب و كان المنافق فى الأصل بمعنى الخلد فالاسلام اعطاه معنى اظهار عكس ما هو فى باطن الانسان و كانت كلمة فسق «تعنى تشقق القشرة و خروج الحب عند العرب لكنها صارت بمعنى الخروج عن امر الشريعة. (المصدر نفسه).

٤. نقل الكلمة من حقل عبادة الاصنام لعرب الجاهلية الى حقل التوحيد مع حفظ شكلها و هذا ما يختص باسماء الله فعلى سبيل المثال كانت العرب تسمى آلهتها بصفاتها أو القابها اذ كانت بعض هذه الصفات قريبة من صفات الله الأحد مثل القدرة و القوة و الحكمة و العلم (المصدر نفسه).

النقطة الملحوظة ضمن النقاط المذكورة هي اشتراكها فى نقطة واحدة الا وهي الحفاظ على شكل الكلمات لكنها خضعت للتغيير فى المعنى و هذا بسبب اتجاه القرآن الى مبدأ الاستمرار التاريخى من جانب و الى مبدأ قطع الصلة الثقافية التى هى احدى شئون الشريعة الجديدة من جانب آخر.

النماذج:

سنقدم نماذجاً من المفردات التى جاءت فى الشعر الجاهلى بمعنى لكنها كسبت معاني اخرى فى القرآن.

كان ابن عباس اول من أخذ الشعر الجاهلى بعين الاعتبار فى سنة التفسير فى الثقافة الاسلامية. فكان يقدم نماذجاً من الشعر الجاهلى فى شرح أية مفردة استناداً الى نصوص الشعر الجاهلى فى الردعلى اسئلة نافع بن الأزرق. ثمة الكثير من النماذج المقدمة من قبل ابن عباس فى التفسير اللغوى (ابن عباس، ٢٠٠٧) لكن بما أن الهدف من وراء هذا المقال هو دراسة التطور الدلالى لمفردات الشعر الجاهلى المستعملة فى

القرآن فلهذا نصرف النظرعنها لأن ابن عباس فى تفسيره للمفردات الغريبة كان يكتفى بإتيان نماذج من الشعر الجاهلى فحسب.

مفردة «تسبيح» هى من ضمن المفردات الاكثر استعمالاً في القرآن. جاءت هذه المفردة و اشتقاقاتها ٩٣ مرة فى القرآن. الأصل فى معنى هذه المفردة هو. (البسامة). (ابن منظور، ١٤١٤). تحول هذا المعنى الى معنى مجازى و هو «الابتعاد» و من ثم كانت العرب تسمى الخيول «السابحات» و كان «سَبْحُ الفرس» بمعنى «جريه و تباعده».

ليس من الصعب فهم الصلة الدلالية بين «السباحة» و «التباعد» بالمعنى المجازى البتة لأن السباحة تغيُّب الشخص عن النظر.

مِسَحٍّ اذا ما السابحات على الونى
أثرن الغبار بالكديد المركَّلِ

(امرؤ القيس ١٩٦٩).

لكن عملية الاتساع الدلالى جعلتها تشمل البعيد عن النظر أيضاً و النموذج الأمثل هو التصور الذهنى للرب عند البشر أنصار «التسبيح» بمعنى ذكر الله.

جاء هذا التصور فى الشعر الجاهلى حيث قال الأعشى:

وَ سَبِّحْ على حين العشيات و الضحى
و لاتعبد الشيطان و اللهَ فاعبدا

(الأعشى ١٩٦٨)

تستعمل هذه المفردة فى أشكالها الأخرى بمعنى التعجب أيضاً و قدجاءت بهذا المعنى فى شعر الأعشى كما يفهم من سياق الكلام:

اقول لما جاءني فخرُهُ
سبحان مِنْ علقمةَ الفاجرِ

(المصدر نفسه).

جاءت بمعني السباحة في آيتين من ضمن٩٣ آية في القرآن فحسب و جاءت بالمعاني الثلاثة الأخرى في سائر الآيات:

١. ذكرالله.
٢. التنزيه.
٣. التعجب.

جاءت بالمعني الأصلي في آية ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[سورة الانبياء: ٣٣] و [سورة يس: ٤٠] و بمعني التنزيه في آية ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة

صافات: ١٥٩] و بعمني التعجب في آية ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [سورة الاسراء: ٩٣].

رب: هذه المفردة و اشتقاقاتها ثاني اكثر المفردات استعمالاً بعد لفظة «الله». جاءت هذه المفردة كراراً و مراراً على لسان شعراء الجاهلية. ذكرت المعاجم عدة معان لهذه المفردة: بمعني مربي و مكمل الشئ (ابن دريد، بي تا) يقول النابغة:

وَ رَبَّ عليه اللهُ أحسَنَ صُنْعِهِ

و كان له على البرية ناصرا

بعمني الانضمام و الالتحاق. عندما يقال «فلان يرب الناس» فهو بمعنى يجمعهم أو يجتمع الناس حوله (ابن فارس، ١٣٦٨، مادة «رب»).

وبمعنى المالك و الصاحب في شعر الأعشى.

وقد أخالسُ ربَّ البيت غفلتَهُ

و قد يحاذر مني ثم مايَئِلِ

(الأعشى، ١٩٦٨).

بمعني السيادة و الرئاسة و تدبير الأمور؛ رَبَّ فلان قومه أي «ساسهم فأطاعوه».

ان القاسم الدلالي المشترك في جميع ما ذكر هو الرئاسة و الاصلاح و تدبير الأمور لكنها جاءت في القرآن الكريم بالمعنى العام لهذا المفردة.

العبادة: تعني العبادة لفظاً تسطيح الطريق فالطريق المعبد يعني الطريق المسطح. (ابن دريد، مدخل «عبد») لكنها في المصطلح تعني الطاعة و التواضع من قبل شخص ما تجاه صاحب نعمة. إذن فالعبادة ضرب من الاستسلام و الانقياد دون المقاومة و التعنت و كان العرب علي معرفة بهذه المفردة و تم استعمالها كثيراً في أشعارهم نظراً الى نظامهم القبلي.

يقول النابغة:

فإن أك مظلوماً فعبدٌ ظلمتَهُ

و تترك عبداً ظالماً و هو ظالع

(المصدر نفسه).

فكان العرب يعرفون معناها التجريدي فضلاً عن المعنى الحسي و العيني و هو «التأله» و «التنسك».

وقد جاءت هذه المفردة و اشتقاتها في مئتين و خمس و سبعين آية من القرآن الكريم لم تخرج من أصلها اللفظي و

هذا يدل علي استعمال هذه المفردة في كلا القرآن و الشعر الجاهلي بمعنى واحد لكن القرآن أعطاها سمة مميزة و خصصها لعبادة الله –سبحانه –.

كما خضعت هذه المفردة في القرآن للاتساع الدلالي و استعملت في معان ثلاثة:

١. اعبدوا أي «وحدوا».

٢. «يعبدون» بمعني «يطيعون» الله اطاعة تامة.

٣. «عباد» بمعني «العبيد» (مقاتل، ١٩٧٥، ص ٢٨٨).

وقد وقع ضرب من الضيق الدلالي في هذه المفردة في الوقت نفسه. ثمة اختلاف بين مفردتي «عباد» و «عبيد» بينما لم تذكر المعاجم هذا الا معاجم هذا الاختلاف. اذ جاءت مفردة العباد مضافة الي الضمائر مثل «عبادي و عبادنا و عبادكم و...» في سبعة و تسعين موضعاً تعني كلها العباد المطيعين لله و المخلصين له مثل: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران: ٣٠] ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾ [سورة الزخرف: ٦٨].

لكن مفردة العبيد جاءت في خمس آيات تدل كلها علي أن هؤلاء هم العصاة لامر الله و المستحقين لعذابه. و مما يجب ذكره أن قبل هذه الكلمة جاءت عبارة «ذوقوا عذاب الحريق» في آيتين و جاءت عبارة «و نذيقه يوم القيامة عذاب الحريق» في آية قبلها في موضع آخر. المقصود من «العبيد» هم العصاة في هاتين الآيتين:

- ﴿...سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨١–٢٨١].
- ﴿... يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة الانفال: ٥٠ –٥١].

تدل هاتين الآيتين علي استحقاق هؤلاء الأشخاص العذاب بسبب إعراضهم عن عبادة الله و عبادتهم لهوى النفس و الأموال فالعبيد هنا بمعنى

المعرضين عن إطاعة الله و عبادته ونظراً الى سياق الآية نستطيع القول إن «العبيد» مصطلح قرآني خاص يجب ترجمته بالعصاة و المردة.

و هكذا هو الحال في آيتي (١٠ -٩) سورة الحج و آيتي (٤٥ -٤٦) سورة فصلت و آيتي (٢٨ -٢٩) سورة ق. تبين هذه الآيات أن هؤلاء يستحقون العذاب بسبب إعراضهم عن عبادة الله. فالنتيجة أن مفردة (العباد) مصطلح قرآني حديث بمعنى الصالحين كما انّ (العبيد) مصطلح بمعني المعرضين عن إطاعة الله و عبادته.

مغفرة -استغفار:

المعنى الأصلي لهاتين المفردتين هو الستر. غفره أي ستره و غفر المتاع في الوعاء أي وضعه في الوعاء و أخفاه. قيل: غفر الشيبَ الخضابُ بمعنى ستر الشيب الخضاب (ابن منظور، مادة غفر). لكن تحول معنى هذه المفردة من ستر الاشياء المادية الي ستر الأمور المعنوية مجازاً مثل ستر الذنب و السيئة.

و قد جاء هذا المعنى المجازي في الشعر الجاهلي مثل:

والغافرُ الذنبَ لاهل الحجا
و القاطعُ الأقرانَ و الواصلُ

(النابغة، ١٩٦٠).

جاءت «غفر» و اشتقاقاتها في مئتين و ثلاث و ثلاثين آية من القرآن الكريم بمعنى ستر الذنوب فالله هو (الغفار) اي ساتر الذنوب و المتجاوز عن سيئات العباد.

نلاحظ أن مفردة (المغفرة) جاءت في الشعر الجاهلي. بمعناها اللفظي أي الستر و بالمعنى المجازي اي ستر الأمور المعنوية و غيرالمحسوسة مثل الذنوب و السيئات لكن معناها تحول على اساس مبدأ الضيق الدلالي الى الاستغفار من الذنوب و السيئات بعد التوبه. مثل ماجاء في آية: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

إسلام:

جاءت هذه الكلمة بمعان عدة؛ (السلام و السلامة) بمعنى (الشفاء)؛ «سلم منه» أي «تبرّأ» الاسلام و الاستسلام بمعنى الانقياد (ابن دريد، بلا

تا، مفردة سلم).

جاءت هذه المفردة في الشعر الجاهلي بمعان كالطرد و الاستسلام و التحية.

فمثال المعني الاول هو ماجاء في شعر الأعشى:

كما أسلم السُّلك من نظمه

لاليءَ منحدراتٍ صغاراً

(الأعشي، ديوان، ص٨١).

و جاءت بالمعنى الثاني في:

دعوت عشيرتي للسلم لمَا

رأيتهُمُ تولَّوا مدبرينا

(ابن دريد، مادة «سلم»).

و جاءت بمعنى التحية في:

وقفنا فقلنا إيهِ سلِّمْ فسلَّمتْ

فما كان إلا وَمْؤُها بالحواجب

(ابن منظور، مادة سلم).

تعدّ هذه الكلمة من الكلمات المفتاحية في القرآن الكريم حيث جاءت بمعنى الخضوع و الاستسلام لأوامر الله و خضعت للتخصيص الدلالي في القرآن عندما جاءت بمعنى الاستسلام لأمر الله و للاتساع الدلالي أيضاً لانها تشمل أحياناً المسلمين و الكافرين كافة بسبب خضوعهم لله و إطاعتهم لأمره لانه خالقهم و لا فرق في اطاعته طوعاً أوكرهاً كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهًا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾[سورة آل عمران: ٨٣].

نفاق –منافق:

جاءت «نفق» في الادب الجاهلي بمعان منها:

١- رواج البيع؛ فكانوا يقولون: نفق البيع أي «راج البيع»و كان النفاق ضد الكساد (ابن منظور، مادة «نفق»؛ «نفقت سلعته» أي راجت سلعته (الزمخشري، ١٨٨٣، مادة «نفق»).

٢- «النفوق» أي الموت؛ نفق الفرس و الدابة و سائر البهائم ينفق نفوقاً بمعني مات و تحول معناها الى الافتقار حيث قالوا: «انفق الرجل» أي «افتقر».

قال كعب بن زهير:

أبيت و لا أهجو الصديق و من يبع

بعرض أبيه في المعاشر ينفق

(ابن منظور، مادة «نفق»).

٣- كما جاءت بمعني الحفرة في الأرض (ابن دريد، بي تا، مادة «نفق»). لذلك يقال لجحر الفأرة «نفقة و نافقاء» لأن لجحره مدخلين فاذا دخل عليه العدو من احدهما خرج من الآخر.

والمنافق الذي أطلق فيما بعد على فئة من الناس هومن هذا الباب و استعمل فيما بعد كمصطلح قرآني. «هو مصطلح لم يعرفه العرب بهذا المعنى الخاص أي بمعنى الذي يخفي الكفر ويظهر الايمان». (ابن منظور، مادة «نفق»).

تكلم القرآن ٣٧ مرة عن هذه الفئة (المنافقين) و هذا هو المعنى المصطلح و الموسع للمفردة التي استعملت في لغة عرب الجاهلية.

«فسق –فاسق»:

يقول العرب: «فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرها» و تسمى الفأرة «الفويسقة» لانها تخرج عليهم من جحرها. (ابن منظور، مادة «فسق»).

استعملت هذه المفردة قبل نزول القرآن الى هذا الحد لكنها اصبحت من المفردات الكثيرة الاستعمال في حقل الحوار الديني في عصر النزول. اعتبر المفسرون «الفسق» العصيان و التمرد عن أمر الله و الخروج عن طريق الحق. (القرطبي، ج١، ص٢٤٤ و الزمخشري، ج١، ص٢٦٧).

يقول السيوطي نقلاً عن ابن الاعرابي: «لم تأت كلمة الفاسق في كلام عرب الجاهلية و هذا شئ عجيب لانها كلمة عربية». (السيوطي، بي تا، ج ١، ص٣٠١).

جاءت اشتقاقات هذه الكلمة في اربع و خمسين آية من القرآن الكريم حيث اتسع معناها من معنى التقشرو الخروج من القشرة البسيطين الى الخروج من طاعة الله. فيكون الفسق تارة بمعنى الشرك و تارة بمعني الذنب (ابن منظور مادة فسق).

وصف المنافقون في القرآن بالفاسقين أحياناً: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[سورة التوبه: ٦٧]. بمعنى الخارجين عن طاعة الله و المائلين

الى الباطل و التاركين للحق... (ابن كثير ١٩٧٠ ج٢، ص٥٨٥) يقول مقاتل جاء «الفسق» على ستة أوجه:

١. الفسق بمعنى العصيان و الكفر بالنبيﷺ و رسالته.
٢. الفسق بمعنى عصيان الله و الغفلة عن التوحيد أي الشرك.
٣. الفسق بمعنى العصيان في الدين دون وجود الشرك أوالكفر.
٤. الفسق بمعنى الكذب دون الكفر.
٥. الفسق بمعنى الذنب دون الكفر.
٦. الفسق بمعنى العورات و السيئات. (مقاتل، ١٩٧٥، ص ٣٢٩ - ٣٣٠).

نلاحظ أن ثمة تشابهاً كثيراً من حيث البنية الدلالية بين الفسق و الكفر و الفاسق و الكافر لكن شمول كلمة الفاسق أكثر من الكافر لأن كل من عصى الله فهو فاسق بينما للكافر معنى محدود. (ايزوتسو، ١٣٧٨، ص ٣١٦).

كفر - كافر:

يعني (الكفر) لفظاً الستار و السترو جاء في الشعر الجاهلي بهذا المعني:

يعلو طريقةُ متنها متواترٌ =
في ليلة كفَرَ النجومَ غمامُها

(لبيد، بي تا، ص ٢٣١).

يعني (كَفَر) في هذا البيت (سَتَر) أي ستر الغمام النجوم.

يقال للرماد الذي يستره التراب «رماد مكفور» و لماء النهر الذي يستر كل مافيه «فهر كافر».

شمل هذا المعنى المادي و المحسوس الظواهر غير المادية و المفاهيم غير المحسوسة تدريجياً. مثل «ستر الغمة و ستر البرهان و الدليل».

وقد جاءت بالمعنى المجازي في هذا الشعر:

فلا تحسبنِّي كافراً لَكَ نعمةً
عليَّ شهيدٌ -شاهدُ الله فاشهدِ

(الأعشى ١٩٦٨، ص ٢٢٩).

جاء الكفر في هذا البيت بمعنى الجحود الذي هو أحد العناصر الأساسية في مفهوم الكفر لكن توجد في القرآن معان أخرى للكفر فضلاً عن هذا وهي:

١. بمعني الجحود و الانكار.
٢. الكافر في القرآن هو ليس من لايشكر الله لرحمته و مغفرته باعماله فحسب

بل ويطغى أمام ولي نعمته.

٣. يتجلى هذا الجحود للرحمة و المغفرة في التكذيب أي الإفتراء على الله و رسوله و رسالته.

٤. الكفر بالمعنى الذي مقابل الايمان.

٥. يتجلى الكفر بمعنى إنكار الخالق في اعمال كالاغترار بالذات و التكبر و العصيان (ايزوتسوع ١٣٧٨، ص٢٤٠-٢٤١).

جاءت هذه المفردة و اشتقاقاتها في حوالي ٥٢٤ موضعاً من القرآن مما يدل على تحول هذه المفردة الى مصطلح.

إلحاد-ملحد:

يعني (لَحَدَ) في اصله الميل و التمايل الى جانب و يطلق على موضع من القبر و مضجع الميت لانه يميل من وسط القبر الى جانبه. الملحود هو كاللحد أيضاً. قيل:

"حتى أُغَيَّبَ في أثناءِ مَلْحودِ"

(ابن منظور، ١٤١٤، ماده «لحد»).

لحّده بمعنى دفنه جاء في هذا المصراع:

"أناسي ملحود لها في الحواجب"

شبه الشاعر انسان العين الذي هو تحت الحاجب باللحد. (ابن منظور، المصدر نفسه، مادة «لحد») وقد أخذت عدة معاني مجازيه من هذا المعني اللفظي:

١- «الملتَحَد» بمعني الملجأ لأن اللاجيء يميل اليه.

٢- «الإلحاد» يعني لفظاً الانحراف عن الحق.

٣- «ألحد» بمعنى جادل. (ابن منظور، المصدر نفسه، مادة «الحد»).

الالحاد هو بمعنى الانحراف عن الحق في المعنى المصطلح أيضاً و قد جاء اربع مرات في القرآن الكريم منها آية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. [سورة الاعراف: ١٨٠].

يخص الالحاد في القرآن الآيات احيانا. مثل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ...﴾ [سورة فصلت: ٤٠]. فالالحاد هو بمعنى الكفر و الجدال مع الحق و الاعراض عنه و ازدراء جميع القيم الدينية.

نصر:

جاءت كلمة «نصر» و اشتقاقاتها في الادب الجاهلي تحمل معاني كالآتي:

١- «النصر» بمعنى هطول المطر و

«النصرة» بمعنى المطر الغزير. «نصرت البلاد» بمعنى هطل المطر عليها و «البلاد المنصورة» تعني «الممطورة». (ابن منظور، مادة «نصر»).

٢- «النصر» بمعنى «العطاء» و «النصائر» بمعنى «العطايا و الهبات». قال اعرابي لجماعة: «انصروني نصركم الله» أي «أعطوني اعطاكم الله» (ابن منظور، المصدر نفسه).

٣- «النصر» بمعنى نصرة المظلوم. يقال: «نصره على عدوه».

فهذه الكلمة مرتبطة نوعاً بمعناها الاول في جميع هذه المعاني و قدجاءت في القرآن الكريم ١٤٣ مرة. فالفرق الاساسي بينها و بين تلقي عرب الجاهلية معنى هذه الكلمة هو أن النصر و العطاء في القرآن كلاهما من قبل الله -سبحانه -.

كما جاء في القرآن: ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٦].

وحي:

جاء «الوحي» في الشعر الجاهلي بمعني: «الكتابة». يقول لبيد في مطلع قصيدته:

فَمَدافعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُها
خَلَقاً كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

(لبيد، بي تا).

فقد شبه الشاعر الأطلال الباقية ببقاء الكتابة على الحجر. (وحيّ جمع وحي).

أو قول زهير:

لمن الديار غشيتها بالغرقد
كالوحي في حِجْر المسيلِ مخلدِ

(زهير، ١٩٦٤).

أذن تعني كلمة «الوحي» لفظاً الاشارة و الكتابة و الرسالة و الإلهام (ابن منظور، مادة «وحي») و قد جاءت في القرآن بهذه المعاني الاالكتابة و تم استعمالها في ثمانين آية و عبر عنها بوسوسة الشيطان أحياناً ﴿.. وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ ﴾ [سورة الانعام: ١٢١].

غيث -مطر:

لا فرق بين «الغيث» و «المطر» في الشعر الجاهلي فالشعراء كانوا يستعملونهما مترادفتين و كانتا تميزان عن طريق السياق. كانتا تأتيان احيانا بمعنى

الخير و الاحسان و لهذا كانوا يشبهون الأمراء بهما. مثل هذا البيت:

و إنَّ يدَ النعمانِ ليستْ بكزَّةٍ

و لكنْ سماءٌ تمطر الوَبْلَ والدِّيَمْ

فلا فرق عندهم بين «المطر» و «الغيث» إلا اذا كان الغيث بمعنى المطر و ما ينبت بعد المطر أيضاً.

لا يلاحظ فرق بين «غيث» و «مطر» في القواميس العربية. فقدجاء في لسان العرب: «الغيث: المطر و الطلأو الجمع اغياث و غيوث» (ابن منظور، المصدر نفسه، مادة «غاث و مطر» لكن ثمة فرقاً واضحاً بين هاتين الكلمتين في القرآن و لكل منهما دلالة خاصة فالغيث في القرآن هو الماء الذي ينزل من السماء رحمة للعباد و مسبباً الخير و النمو و الخصب و العطاء و الزرع. تفيد الآيات الثلاث التي جاءت كلمة «الغيث» فيها هذا المعنى:

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[سورة الشورى: ٢٨].
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [سورة لقمان: ٣٤].
- ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾[سورة الحديد: ٢٠].

لكن كلمة «المطر» جاءت على عكس ذلك في القرآن. فقد جاءت و اشتقاقاتها خمس عشرة مرة في القرآن بمثابة العذاب على الكافرين و مجيؤها بهذا المعنى واضح بالقرآن و كانها آية للعذاب. مثل:

- ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[سورة الاعراف: ٨٢].
- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾[سورة هود: ٨٢].
- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [سورة الشعراء: ١٧٣].

- الاستنتاج:

بحسب النماذج المتقدمة في النص نستطيع أن نشير الى صلة التعامل بين

القرآن و الثقافة الجاهلية. فنص القرآن كان في تعامل مع لغة القوم أي العرب استناداً لما جاء في القرآن فصار اساساً و معياراً لثقافة جديدة متأثراً من ثقافة القوم. بعبارة أخرى كان الشعر معياراً لوزن الكلام قبل نزول القرآن فأصبح القرآن معياراً لوزن الكلام أي الشعر بعد نزوله و من ثم و إن كان القرآن نابعاً من السنة اللغوية لعرب الجاهلية لكنه أدى الى التطور الدلالي باستعماله اساليب تغيير المعنى و جرت هذه العملية في إطار الضيق الدلالي و الاتساع الدلالي و التحديث الدلالي للأدلة.